

الكشاف المبين

عن قول الشيخ التجاني " **امْصَابٌ نُكُونُوا مُسْلِمِينَ** "

بقلم: عدنان زهار

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه،

فقد استسمن فينا الورم أخونا وحبنا سيدي عبد الله النظيفين، بلغه الله المقام الأمين، أمين، واستنصر بالفقير لدفع الإشكال، في كلام منسوب لمولانا الشيخ أبي العباس أحمد التجاني رضي الله عنه، حسبما نقله عنه أمين الطريقة الأحمدية مولاي الطيب السفياي رضي الله عنه في كتابه "الإفادة الأحمدية"، فقال -نقلا عن سائل استفسره-: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فضيلة الأستاذ، أنشدكم الله أن تعينني بشرح هذه العبارة الصادرة في الإفادة الأحمدية، لأن هناك بعض المنكرين في نيجيريا نقلها وأصبح يروجها بين العامة ويقول: إن الشيخ رضي الله أقر على أن التجانيين لم يشموا رائحة الإسلام، فهناك كثير من الإخوة يفتتنون بها وبعضهم يرسلون إلي السؤال ويطلبون أن أوضح لهم؛ وأنا ما فهمت منها شيئا، ولذلك أستعين بكم على رد هذه الشبهة المثارة.

وعبارة الشيخ حسب "الإفادة" هي: آمن صاب نكون مسلمين، ووالله ما شمنا رائحة الإسلام...

فقلت وعلى الله اعتمدت:

✚ لا يتسرع في الإنكار على أهل الله بما تحتمله عباراتهم مما لم تألفه الأسماع أو تتسع له العقول إلا ضيق الحويصلة، مطبوع على قلبه بطابع الانتقاد، متقوتٌ صاحبه على مائدة الوسواس، والمحتسي من كؤوس العداة لأهل الله، بحيث تجد المفتون متسرعا للإنكار، لا تكاد عينه تلمح كلمة نورٍ إلا رآها كالنار، ودق لها طبول الحرب، وأعلن بها أسباب الغزو،

وألقى بها على الأولياء سهام الانتقاد، وأذاع عليهم الانسلاخ من الملة والدين بما توهمه ووهّمه من سوء الاعتقاد.

✚ ولم تنزل هذه حكمةً ربانيةً وسنةً كونيةً في الأنبياء والأولياء، ما سلم أحدٌ منهم من غواية الغاوين ونكير الدهماء.

✚ وكان لسيدنا الشيخ من سهم الإنكار النصيب الأوفر في الزمن المتأخر، تحقيقاً للبشارة الأحمدية، والنظرة المحمدية، فشهر الأصغر عداوته فزادوا صغاراً، وفازوا في الدنيا بحرب الله ورسوله فألبسوا شناعةً وشناراً، وتدنّثوا بدثار التسنن المتدنس بنجاسة الأهواء جهاراً، ولا زال لهم عقب في الدهر يصلون ليلاً ونهاراً، وكفى بالله وكيلاً وحسبياً وجليلاً قهاراً.

✚ أما العبارة المنقولة عن الشيخ في نص السؤال، فالجواب عنها من وجوه ترفع ما اعترى قارئها من الإشكال:

✚ الوجه الأول: اعلم أن ليوث هذه الطريقة ومراجعها على الحقيقة، اتفقوا أن سيدنا الشيخ رضي الله عنه أوتي جوامع الكلم وبليغ العبارة وفصاحة اللسان، فكان إذا جالس العلماء خاطبهم بلسانهم فيسيل لعابهم من جودة منطقهم رضي الله عنه، وتلتذ أسماعهم برونق أسلوبه وجزالة كلامه. لكنه إن جالسه العوام، فإنه يتنزل لهم بخطاب يليق بأفهامهم وتحتويه عقولهم وتدركه قلوبهم، فيحدثهم باللهجات العامية، التي لا يدركون غيرها، وبالقواعد الكلامية الخطابية التي يتعارفونها.

✚ وكان سيدي الطيب السفياي رضي الله عنه ينقل عن الشيخ كلّ شيء نطق به في الحل والترحال، وفي الجد والمزاح، وما يجري مجرى التريفة وما يجري على سنن العادات العرفية، وما يقوله في ساعة شطح، وما يعبر عنه في ساعة صحو... ما اتفق له من مثل هذا، ولذلك كان سيدي العربي بن السايح رضي الله عنه، يتورع في اعتماد كل ما في "الإفادة" ويتوقف عن اعتباره من كلام الشيخ، فلعله عبر بما لا يريد وجهه الظاهر، أو خاطب خاصاً في خاص فيحمله الناقل الجاهل للسياق وسبب الورد على العموم في عام، وعليه، فالناظر في

"الإفادة الأحمدية" مطالب بالتريث في نقل الكلام عن الشيخ واعتباره أو تأسيس شيء عليه، حتى يتفق معناه من جهات أخرى من كلامه هو أو تحقيق خلص أصحابه وعلماء طريقته.

✚ الوجه الثاني: وعلى تسليم أن الذي نقله الرباني السفياي من كلام الشيخ التجاني، فكلام العارفين له وجهان مشهوران عند أهل الله المعتنين باصطلاحهم، المتحققين بأوجه خطاباتهم، الأول الصحو وهو الغالب عليهم، والثاني ما قالوه في ساعة شطح، ولا داعي للتطويل بهذا المبحث فهو شهير عند أهله، وحاصله أن الشيخ ربما تكلم في وقت غيبوبة حسه عن السوى فيشرح صدره بمعاني تضيق لها العبارة فينطق بها، ولها ظاهر غير معناها الباطن، ومن هنا أشكل كلام أكثر العارفين على المتشرعين، فتجاسروا على الحمل عليهم بسببه، كما تراه في كتب الشعراي رضي الله عنه وغيره.

✚ الوجه الثالث: وعلى احتمال أن عبارة الشيخ المنقولة وهي: آمن صاب نكونو مسلمين، ووالله ما شممنا رائحة الإسلام... فلها تأويلات سهلة ممتنعة سليمة من غير تكلف، يعرفها من ذاق لغة التربية، بل ومن مرأ عليه ولو مرة مباحث علم البديع من علوم البلاغة.

✚ والعبارة تقول: وددنا لو كنا مسلمين، ما شممنا رائحة الإسلام؛ ولها من التأويل ما يلي:

✚ أنها خرجت مخرج المبالغة في عدم التحقق بمقام الإسلام الذي هو إسلام القلب والوجه لله، وإسلام الناس من إذاية اليد واللسان، ومن تأمل معنى هذا الكلام المستل من حديث خير الأنام، يعلم أن بين أكثر أهل القبلة وبين شروط الاستسلام الواردة في الخبر كما بين السماء والأرض، فأين التسليم والاستسلام المطلق لله في منعه وعطائه وبسطه وخفضه؟ وأين سلامة الناس من الناس، بل لو قلت: لا يسلم أحد من إذاية أحد بلسانه وييده أو على الأقل بقلبه وسوء ظنونه لكان أقرب للحق، فأين الإسلام؟ فكلام الشيخ حقيقة في حقيقة، بل لا يحتاج إلى تأويل، ولا إلى تكلف في التعبير؛ وحال الناس لا يخفى على الناس، ومن قال إنه أدى حق الإسلام بأن أسلم وجهه وقلبه لله حقا وسلم الناس من يده ولسانه

حقاً، فليحمل لواءه، فإننا نقسم بالله أنه اليوم من قبيل المحال. وعليه فكلام الشيخ في نفي كمال الإسلام لا في نفي صحته، (ومن يضل الله فلا هادي له).

✚ التاويل الثاني: أنها عبارة خرجت منه رضي الله عنه مخرج التواضع على عادة أهل الخصوصية، فإنهم كلما ازدادوا من الله شبراً فاطلعوا بعده على ما حجب عنهم قبله ازدادوا لوماً لأنفسهم واعترفهم بالتقصير في حق خالقهم، وانظر إلى الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم لما قال: "إنه ليغانٌ على قلبي، فأستغفر الله مائة مرة" قال مولانا أبو الحسن الشاذلي: ذلك غين أنوار لا غين أغيار، أي أن المشاهدة تفضي للمكابدة.

✚ التاويل الثالث: أنه خرج مخرج الحث على الاجتهاد في الطاعات وترك المنكرات، كما كانت سنة ومنهج النبي عليه السلام في المبالغة في العبارة، تحذيراً من إتيان القليل المفضي إلى ما هو أعظم منه، من باب قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أوّمن خان وإذا خاصم فجر"، فانظر هل ينفك مصلٌ أو حاج أو مَزَك أو خطيب أو واعظ أو مقدم طريقة أو عالم شريعة عن واحدة من هذ الأربع؟ أفيكونون جميعاً منافقين نفاقاً خالصاً موجبا لهم الدرك الأسفل؟ كلا، وإنما هي عبارة تغليظ لا يراد ظاهرها، وهذا مما اشتهر عند دارسي البلاغة النبوية، ومحجوبة معانيه عن أهل الوسواس الشيطانية والحظوظ البهيمية.

✚ التاويل الثالث: وليس ببعيد، وهو أن يكون الشيخ يقصد نفسه ويشير إلى مقامه، الذي يخبر فيه -على طريقة أهل الإشارات- أن الإسلام الذي هو مبتدأ السير تجاوزه بمراحل، وبعد عنه بعدا صار لا يشم رائحته لتمكنه منه وتحققه به بحيث صار له شعاراً، وإنما بلغ مقام جمع الجمع ومرتبة الشهود الكلي بحيث لا يرى ولا يسمع إلا بالله ومن الله وعلى الله، وهذا مقام ينفك صاحبه عن الظواهر، وينسلخ من المظاهر، ويتحقق بمقام الأكابر، وما وراء الحجاب، محجوب.

والله أعلم والحمد لله.

كتبه: أبو عمر عدنان بن عبد الله زُهار

ليلة الأربعاء 21 شعبان 1441 الموافق 15 أبريل 2020

مدينة الجديدة المغربية